المحاضرة السادسة

أدب الرحلة ما بين البيروني وفاسكو دا غاما

مقدمة:

تكمن أهمية هذه المحاضرة في اختيار نموذجين مختلفين الأول رحالة مسلم والثاني برتغالي مسيحي، إلا أنّ الاتفاق كان في وجهتهما إلى بلاد الهند، وبالتالي هدفنا من المقارنة هو الكشف عن أسلوب الكتابة في النصين وكيفية نظر الرحالة المسلم والأوروبي إلى المجتمعات والثقافات التي يلتقي بها.

أدب الرحلة عند البيروني:

1-التعريف بالبيروني (362-440هـ) (973-1048م)

هو أبو الريحان البيروني الرياضي الفلكي الفيلسوف الجغرافي المؤرخ صاحب المؤلفات العلمية الرائدة، التي حققت له شأنا عظيما خلال عصر النهضة العربية، بفضل ما تميز به من عقلية تحليلية وغزارة في الإنتاج، ورغبة لا تكل في التحصيل المعرفي والكشف العلمي، ونهم لا يشبع للمطالعة والدرس، وإجادة لعدد من اللغات هي الخوارزمية والعربية والفارسية والسنسكريتية واليونانية والسريانية، فاستطاع أن يأتي على أغلب الثقافات والعلوم التي دونت بها.

يقول عنه العلامة الألماني **سخاو** " إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ"، وأطلق **جورج سارتون** في كتابه القيم مقدمة في تاريخ العلم، اسم البيروني على النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)، فسماه عصر البيروني.

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في إحدى ضواحي عاصمة الدولة الخوارزمية. عاش في بلدته حتى بلغ الثالثة والعشرين، حيث عمل في بادئ الأمر كمساعد لأحد علماء النبات، يجمع له الكثير منها ومن بذورها، فغرس ذلك في نفسه حب الاستطلاع والتقصي

وطلب العلم، ثم تدرب على دراسة الأجرام السماوية على يد أستاذه أبى نصر منصور بن على بن عراق، كما اتصل بابن سينا، ونشر في تلك الفترة أوائل مؤلفاته.

خلف لنا عددا كبيرا من المؤلفات يصل إلى نحو مائة وثمانين كتابا، نشر هو بنفسه فهرسا بأسماء مائة وثلاثة. ومن أشهر مؤلفاته:

كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية.

الهند الكبير أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة.

كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم.

كتاب تحقيق منازل القمر.

عشر مقالات في خواص المعادن والهندسة والطبيعة والفلك.

كتاب رؤية الأهلة.

كتاب كرية السماء.

استخراج الأوتار في الدائرة.

الصيدلة في الطب.

تقاليد علم الهيئة.

2-رحلة البيروني

فتح المسلمون بلاد السند في أواخر القرن الأول الهجري، ولكن الإسلام لم ينتشر بها ويستقر إلا بعد فتوحات محمود الغزنوي (970- 1030م)، صحبه البيروني في ثلاث عشرة منها، وقد أتيحت للبيروني الفرص، يدرس أحوال الهنود ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغتهم ويقرأ أدبهم، ويطلع على ثقافتهم، ويشهد طقوس عباداتهم وتقاليدهم ويقف على أساليبهم في العيش والتفكير.

ومن هنا كان إقدامه على وضع سفره يصف فيه حضارة الهند، وأبرز المعتقدات السائدة فيها.

يبدأ الكتاب بمقدمة تبين أهداف الكتاب:" وليس الكتاب حجاجا وجدلا حتى استعمل فيه بإبراز حجج، ومناقشة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق، فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز ومواصفات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم، إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد".

وقد قسم البيروني كتابه إلى ثمانين فصلا، نذكر منها ما يلي:

معتقدات الهنود وشرائعهم.

أحكام العبادات عندهم مثل القرابين والصيام والحج والأعياد والصدقات والمحرم والمباح في الطعام والشراب.

نظام الطبقات في المجتمع الهندي.

أنواع الخط وأساليب الكتابة.

التراث اللغوي والأدبي.

المعالم الجغرافية.

علم الفلك عند الهنود.

طبيعة اعتقادهم في الله سبحانه وتعالى.

والمطلع على كتاب التحقيق ما للهند من مقولة سوف يلحظ ميل البيروني إلى الفلسفة وتركيزه على العقائد، ولعل ذلك ربما يرجع إلى غلبة التفلسف والتأمل على معظم أهل الهند، وقوة الاعتقاد في نفوسهم وسيطرة الفكر على سلوكهم.

كان أميناً في منهجه العلمي لا تأخذه في الحقيقة لومة لائم إذا ما أبصر تلاعبا حولها أو ضربا من الإهمال، لقد كان عالماً واسع الأفق، وسعت معرفته العلوم الدقيقة العصره، وإن شوقه البحث والتقصى يعود بالشرف لقومه وعصره ويقف قدوة لجميع العصور التالية.

يكشف البيروني القناع عن المشكلات التي تقف في سبيل الباحث عن أحوال الهند، ويذكر في مقدمتها اللغة، ويشرح في تفصيل أوجه الصعوبات التي يتعذر التغلب عليها، وإذا كانت اللغة – وهي الأداة – التي يتعرف بها الباحث شؤون الهند من مذاهب ومعتقدات وغيرها تتميز بصعوبات كثيرة، فكم من المتاعب يلاقيها الباحث في سبيل الوصول إلى ضالته.

معتقدات الهنود

يقول البيروني في هذا:

ويعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفى الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفى العلم أنه معهم، فيترفعون ولا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم، وفي الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علما غير علمهم.

رحلة فاسكو دا غاما إلى الهند وأسلوب الكتابة الرحلية في سجل رحلته

مقدمة

شهد القرن الخامس عشر تحولات كبرى في تاريخ أوروبا، كان من أبرزها اتساع حركة الملاحة البحرية والاستكشاف الجغرافي. وقد ارتبطت هذه الحركة بمجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والدينية، من بينها رغبة القوى الأوروبية في الوصول المباشر إلى أسواق الشرق، والحصول على السلع الشرقية، ولا سيما التوابل، إضافة إلى التنافس بين القوى الأوروبية وسعي البرتغال إلى توسيع نفوذها البحري.

وفي هذا السياق برز **فاسكو دا غاما (Vasco da Gama)** بوصفه قائدًا للرحلة البرتغالية التي تمكنت، لأول مرة بالنسبة للأوروبيين الغربيين، من الوصول بحرًا إلى الهند عبر الدوران حول رأس الرجاء الصالح. انطلقت الرحلة سنة 1497ووصلت إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند سنة 1498، قبل أن يعود الأسطول إلى البرتغال سنة .1499وتصف المصادر التاريخية هذه الرحلة بأنها من أهم الإنجازات الملاحية الأوروبية، وأنها أسست لاتصالات جديدة بين أوروبا وحضارات آسيا ومهدت للتوسع البرتغالي في المحيط الهندي .

ولم تكن أهمية الرحلة مرتبطة بالملاحة وحدها، بل رافقها أيضًا نوع من الكتابة الرحلية التي سجلت مشاهدات أفراد الحملة، ووصف البلدان والشعوب والسلع والعادات والموانئ والمخاطر البحرية. ويُعد النص المعروف باسم *Roteiro da primeira viagem de Vasco da Gama à Índia, 1497–1499* من أهم المصادر المتعلقة بهذه الرحلة.

1- فاسكو دا غاما ورحلته إلى الهند

كانت البرتغال في القرن الخامس عشر من أبرز القوى الأوروبية اهتمامًا بالاستكشاف البحري. وقد ارتبط هذا الاهتمام بالرغبة في الوصول إلى مصادر الذهب والعاج والتوابل، وكذلك البحث عن طريق بحري مباشر إلى الهند.

وكانت تجارة التوابل الآسيوية ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة إلى أوروبا. وكانت السلع الشرقية تصل إلى الأسواق الأوروبية عبر شبكات تجارية معقدة يشارك فيها التجار العرب والفرس وغيرهم. لذلك كان الوصول المباشر إلى الهند يمثل هدفًا اقتصاديًا واستراتيجيًا بالغ الأهمية بالنسبة للبرتغال.

وجاءت رحلة فاسكو دا غاما بعد سلسلة من الرحلات البرتغالية على طول الساحل الإفريقي، وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح من أهم المقدمات التي جعلت الوصول إلى المحيط الهندي ممكنًا.

انطلقت الحملة من البرتغال في 8يوليو 1497، وضمت أربع سفن. وكان فاسكو دا غاما قائد الأسطول، بينما تولى شقيقه باولو دا غاما قيادة إحدى السفن، وقاد نيكولاو كويلو سفينة أخرى. وتوضح الرواية أن الملك مانويل الأول أرسل الأسطول بهدف الاستكشاف والبحث عن التوابل.

وتكشف بداية السجل عن طبيعة الكتابة الرحلية نفسها، إذ يبدأ بتحديد السنة والملك والهدف من الرحلة، ثم ينتقل إلى تسجيل تاريخ المغادرة ومراحل الإبحار والأماكن التي تمت رؤيتها. وهذا يدل على أن الكاتب لم يكن يسعى في البداية إلى كتابة قصة أدبية، وإنما إلى توثيق الرحلة وتسجيل مسارها.

اتجه الأسطول جنوبًا بمحاذاة الساحل الإفريقي، ثم تجاوز رأس الرجاء الصالح، واتجه بعد ذلك إلى شرق إفريقيا. ووصل البرتغاليون إلى ماليندي، ومنها عبروا المحيط الهندي باتجاه الهند. وكانت هذه المرحلة من أهم مراحل الرحلة، إذ تطلبت معرفة بالرياح الموسمية والملاحة في المحيط الهندي. وأخيرًا وصل الأسطول إلى ساحل الهند سنة 1498، ثم إلى كاليكوت، أحد أهم المراكز التجارية في ساحل مالاب.

كانت كاليكوت مدينة تجارية مهمة قبل وصول البرتغاليين بوقت طويل. وكانت مرتبطة بشبكة واسعة من التجارة البحرية التي تصل الهند بشرق إفريقيا وشبه الجزيرة العربية ومناطق أخرى من المحيط الهندي. ولهذا وجد البرتغاليون أنفسهم أمام مجتمع تجاري وثقافي أكثر تعقيدًا مما كانوا يتوقعون.

ويكشف سجل الرحلة عن اهتمام واضح بالسلع والتوابل والأسعار والمهن والأطعمة والأحجار الكريمة والأسلحة وغيرها من مظاهر الحياة المحلية. بل إن النص يضم في نهايته **قائمة** بالتوابل والسلع وأسعارها، إضافة إلى مفردات من لغة كاليكوت).

وهذا الجانب مهم جدًا في تحليل الرحلة؛ لأنه يدل على أن الرحالة لم يكن يسجل ما يراه بدافع الفضول فقط، وإنما كان يجمع معلومات يمكن أن تكون مفيدة تجاريًا وملاحيًا.

بعد الوصول إلى كاليكوت، حاول فاسكو دا غاما إقامة علاقات مع حاكم المدينة، المعروف بلقب الزامورين. لكن العلاقة لم تكن سهلة، إذ اصطدم البرتغاليون بشبكة تجارية قائمة كان للتجار المسلمين حضور قوي فيها.

وكانت أهداف البرتغاليين تتجاوز مجرد زيارة الهند؛ فقد كانوا يريدون إنشاء علاقات تجارية مباشرة والحصول على التوابل، وهو ما جعل وجودهم يمثل منافسة للمصالح التجارية الموجودة أصلًا.

2-خصائص الكتابة الرحلية في سجل الرحلة

الطابع الوصفي: من أبرز خصائص النص الوصف. فالكاتب يصف الأماكن التي يمر بها، والسواحل والموانئ والسكان والسلع والحيوانات والنباتات والعادات.

وتشير مكتبة الكونغرس إلى أن النص يتناول موضوعات متنوعة جدًا، منها الأمراض والنباتات والحيوانات والمهن والأسلحة والطعام والأحجار الكريمة والصعوبات الملاحية، إلى جانب وصف بعض الممالك الشرقية. وهذا التنوع يدل على أن الرحلة كانت وسيلة لجمع معرفة واسعة عن العالم الجديد الذي واجهه الأوروبيون.

الطابع التقريري: لا يعتمد النص على الخيال الأدبي بشكل أساسي، وإنما يقوم على التسجيل والتقرير. فالكاتب يهتم بالتواريخ والمسافات والموانئ ومراحل الرحلة، ويحدد أماكن الوصول والمغادرة. وتظهر هذه السمة منذ بداية السجل، حيث يذكر تاريخ مغادرة البرتغال، ثم يتابع تحركات السفن بصورة متسلسلة.

الطابع الملاحي والجغرافي: تحتل الملاحة مكانة أساسية في النص، لأن الرحلة كانت في جوهرها رحلة بحرية استكشافية. ويلاحظ اهتمام الكاتب بالموانئ والطرق البحرية والرياح والصعوبات التي تواجه السفن. وهذا يجعل النص مصدرًا مهمًا لدراسة تاريخ الملاحة الأوروبية في نهاية القرن الخامس عشر.

الطابع التجاري: تحتل التجارة مكانة مركزية في الكتابة. فالرحلة كانت مرتبطة بالبحث عن التوابل، ولذلك نجد اهتمامًا بالسلع والأسعار والأسواق. وهنا يظهر بوضوح أن الرحالة لا ينظر إلى المكان باعتباره فضاءً جغرافيًا فقط، وإنما باعتباره أيضًا مجالًا اقتصاديًا. وهذا ما تؤكده إضافة قائمة التوابل والسلع وأسعارها إلى المخطوط) .

صورة الآخر في الكتابة الرحلية:

وصف السكان والعادات: يسجل النص معلومات عن الشعوب التي التقى بها أفراد الحملة، وعن ملابسهم وعاداتهم ومهنهم ومعتقداتهم. وهذا يمثل جانبًا مهمًا من أدب الرحلة؛ إذ يصبح الرحالة وسيطًا بين ثقافتين :ثقافة الكاتب وثقافة المجتمع الذي يصفه. لكن هذه الوساطة ليست محايدة دائمًا.

سوء الفهم الثقافي: واجه البرتغاليون مجتمعًا وثقافة ودينًا لم يكونوا يعرفونهما معرفة دقيقة. ولذلك وقعوا في بعض التفسيرات الخاطئة لما شاهدوه. لأن الرحالة لا ينقل الواقع بصورة آلية، بل يفسر الواقع وفق معارفه ومعتقداته السابقة.

البعد الديني: لم تكن الرحلة اقتصادية فقط. فالمشروع البرتغالي كان يحمل أيضًا خلفية دينية، مرتبطة بالمواجهة مع القوى الإسلامية وبالبحث عن مسيحيين في الشرق. ويظهر هذا البعد في سياق الرحلة وفي طريقة تفسير بعض المظاهر الدينية التي شاهدها أفراد الحملة.

3-القيمة التاريخية للرحلة

تكشف دراسة رحلة فاسكو دا غاما إلى الهند عن أهمية الرحلة في تاريخ الملاحة الأوروبية وفي تطور الكتابة الرحلية. فقد بدأت الرحلة سنة 1497 بهدف البحث عن طريق بحري إلى الهند والوصول إلى مصادر التوابل، وتمكن الأسطول من الوصول إلى كاليكوت سنة 1498 بعد الدوران حول إفريقيا، ثم عاد إلى البرتغال سنة 1499.

أما الكتابة الرحلية المصاحبة للرحلة فقد اتسمت بالوصف والتقرير والملاحظة، واهتمت بالجغرافيا والملاحة والتجارة والسكان والعادات والأديان. كما أنها قدمت معلومات واسعة عن البلدان والشعوب والسلع والأسواق، حتى إنها تضمنت قائمة بالتوابل والسلع وأسعارها ومفردات من لغة كاليكوت.

غير أن هذه الكتابة لا يمكن قراءتها باعتبارها وصفًا موضوعيًا خالصًا؛ فهي تعكس أيضًا نظرة الرحالة الأوروبي إلى الآخر، وتتأثر بالمعارف الدينية والثقافية والتجارية التي حملها أفراد الحملة معهم.

ومن أهم النتائج التي يمكن استخلاصها أن الرحلة لم تكن مجرد مغامرة جغرافية، بل كانت نقطة التقاء بين الملاحة والتجارة والدين والسياسة والمعرفة. كما أن النص الرحلي المرتبط بها يمثل وثيقة مهمة لفهم الطريقة التي بدأ بها الأوروبيون في التعرف على المجتمعات الآسيوية في عصر الكشوف الجغرافية.

ملاحظة: المخطوط المعروف اليوم مجهول المؤلف، وإن كانت نسبته إلى ألفارو فيلو تقليدية، ولذلك ينبغي التمييز بين شخصية فاسكو دا غاما بوصفه قائد الرحلة وبين النص الذي سجل أحداثها .النص الرحلي المعروف باسم *Roteiro da primeira viagem de Vasco da Gama à*

مقارنة بين أسلوب أدب الرحلة عند البيروني وفاسكو دا غاما

وجه المقارنة	**فاسكو دا غاما**	**البيروني**
العصر	أواخر القرن 15م	القرن 11م
طبيعة الرحلة	بحرية استكشافية وتجارية	علمية وحضارية
أهم مجال للاهتمام	الملاحة، الموانئ، التجارة، السكان	التوابل، العلوم، الدين، الفلسفة، العادات، التقويم
أسلوب الكتابة	وصفي، تقريري، ملاحي	تحليلي، علمي، نقدي
الملاحظة	مباشرة ومرتبطة بما تشاهده الحملة	دقيقة ومقارنة
النظرة إلى الآخر	ينظر إلى الآخر من منظور أوروبي ديني وتجاري	يحاول فهم الآخر من داخله ومقارنة ثقافته بالثقافة الإسلامية
المنهج	التسجيل والوصف والملاحظة	المقارنة والتحليل والنقد
الدين	حاضر ضمن الخلفية الدينية للمشروع البرتغالي	موضوع للدراسة والفهم والمقارنة
التجارة	عنصر أساسي في الرحلة	ليست المحور الأساسي
الهدف المعرفي	معرفة الطريق والأسواق والموارد والموانئ	فهم الحضارة الهندية وتفسيرها
صورة الآخر	تتخللها أحيانًا أحكام وسوء فهم ثقافي	أكثر موضوعية نسبيًا وتحليلًا

وجه المقارنة	فاسكو دا غاما	البيروني
القيمة العلمية	مهمة في تاريخ الملاحة والتجارة الأوروبية	والجغرافيا عالية جدًا في دراسة الهند وعلومها وثقافتها

إن أبا الريحان البيروني وفاسكو دا غاما يمثلان نموذجين مختلفين جدًا في أدب الرحلة: الأول يجعل الرحلة وسيلة للبحث العلمي وفهم الحضارة الأخرى، بينما ترتبط رحلة الثاني بدرجة كبيرة بـ الملاحة والتجارة والاستكشاف والتوسع الأوروبي.

خلاصة المقارنة بين أدب الرحلة عند البيروني وفاسكو دا غاما

تختلف الكتابة الرحلية عند البيروني عن الكتابة الرحلية المرتبطة برحلة فاسكو دا غاما اختلافًا واضحًا، وذلك بسبب اختلاف طبيعة الرحلتين وأهدافهما والسياقات الحضارية التي نشأتا فيها. فإذا كانت رحلة البيروني إلى الهند قد ارتبطت أساسًا بالبحث العلمي والرغبة في فهم الحضارة الهندية وعلومها ومعتقداتها، فإن رحلة فاسكو دا غاما كانت رحلة بحرية استكشافية ارتبطت بالملاحة والتجارة والبحث عن طريق بحري مباشر إلى الهند.

يتسم أسلوب البيروني في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» بالطابع العلمي والتحليلي. فهو لا يكتفي بوصف ما يشاهده، وإنما يسعى إلى تفسير الظواهر ومقارنتها بما هو معروف في الحضارة الإسلامية. ويولي اهتمامًا خاصًا للعلوم الهندية، ولا سيما الرياضيات والفلك، إلى جانب الأديان والفلسفة والعادات والتقاليد واللغات. ولذلك تتحول الرحلة عنده إلى وسيلة لإنتاج المعرفة وفهم الحضارة الأخرى، وليس مجرد تسجيل للأحداث. كما يتميز البيروني بمحاولة فهم المجتمع الهندي من داخله، إذ يسعى إلى عرض معتقدات الهنود وأفكارهم ومصطلحاتهم بصورة مفصلة، ثم يقوم بتحليلها ومقارنتها. ومن هنا يظهر البعد النقدي والمقارن في كتابته، حيث يجمع بين الملاحظة والوصف والتحليل والاستنتاج.

أما الكتابة المرتبطة برحلة فاسكو دا غاما الأولى إلى الهند، وخاصة النص المعروف باسم «Roteiro»، فتتسم بدرجة أكبر بالطابع الوصفي والتقريري. فهي تسجل مراحل الرحلة والموانئ والمسافات والطرق البحرية والرياح، وتهتم بالسكان والأسواق والسلع والتوابل والأسعار. ولذلك ترتبط المعرفة المقدمة في النص بالحاجات العملية للملاحة والتجارة والاستكشاف.

وتختلف كذلك صورة الآخر في النصين. فالبيروني يميل إلى دراسة الآخر وتحليل ثقافته ومعتقداته، بينما يقدم سجل رحلة فاسكو دا غاما الآخر من خلال المشاهدة المباشرة ومن منظور أوروبي ارتبط بالمشروع التجاري والديني والسياسي للبرتغال. ولهذا تظهر في النص البرتغالي بعض حالات سوء الفهم الثقافي والديني، خصوصًا في تفسير المظاهر الدينية الهندية.

ومن الناحية الأسلوبية، يمكن القول إن البيروني يمثل نموذجًا للرحلة العلمية الحضارية التي تجعل من السفر وسيلة لفهم المجتمعات وإنتاج المعرفة، في حين يمثل سجل رحلة فاسكو دا غاما نموذجًا للرحلة الاستكشافية البحرية التي تجمع بين الوصف الجغرافي والملاحي والتجاري.

وعليه، فإن الاختلاف الأساسي بينهما يتمثل في طبيعة الغاية من الرحلة: فالبيروني ينطلق أساسًا من سؤال معرفي هو «كيف نفهم الهند وحضارتها؟»، في حين ينطلق سجل الرحلة البرتغالية من حاجات عملية واستكشافية يمكن تلخيصها في معرفة «الطريق والموانئ والأسواق والسلع». ومع ذلك، فإن كلا النموذجين أسهم في توسيع معرفة الإنسان بالعالم، وإن اختلفت أهدافهما وطرائق وصفهما للآخر.